تطبيق القانون العلمي في دراسة الظاهرة الاجتماعية عند أوغست كونت

د/ نصيرة جعيداني
أستاذة محاضرة أ بجامعة الجزائر 2
قسم الفلسفة

Résumé :

Le positivisme est une doctrine philosophique fondée par Auguste Comte, on appelle aussi scientisme.

Cette philosophie se fixe pour objet essentiel l'étude scientifique des sociétés appelée encore (physique sociale).

L'objet propre de cet article est de déterminer exactement l'esprit positif qui est orienté vers l'établissement de la loi des trois états (Théologique, métaphysique et positif) sur le modèle scientifique.

الكلمات الدالة:

الوضعية، العقل الوضعي، العلمية، قانون الحالات الثلاث، الفيزياء الاجتماعية.

كانت الروح المميزة للقرن الثامن عشر هي روح المشاهدة والدقة والمراقبة وإجراء التجارب واستنباط القوانين العامة الواضحة والدقيقة وصياغة النظريات، وذلك من خلال الاعتماد على المنهج التجريبي الذي يعتبر المنهج الوحيد الذي تتسم فيه معالم الطريقة العلمية التي تقوم على اختبار صدق الفروض والكشف عن العلاقات بين المتغيرات، والتحكم في

مختلف العوامل التي يمكن أن تؤثر في الظاهرة أو موضوع الدراسة للوصول إلى العلاقات بين الأسباب والنتائج.

ولأن موضوع المنهج التجريبي هو الظواهر والوقائع الخارجية فإن العلوم الطبيعية شهدت تطورا في العصر الحديث خاصة وأنها كانت على مر التاريخ تجري في طرق حددت معالمها ممارسات عريقة وراسخة متفق عليها، كما تمكن العلماء فيما بعد من إخضاع مختلف الظواهر الفيزيائية والبيولوجية للتجريب كمصدر لليقين ، وتمكنوا من تجاوز بعض العوائق الإبستيمولوجية المتعلقة بالظواهر الحيوية.

إن ما حققته العلوم التجريبية من نتائج علمية كان لها الأثر البالغ في توجيه القضايا الأساسية التي بدأت تطرحها التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية التي عرفها المجتمع الأوربي منذ عصر النهضة إلى نهاية القرن التاسع عشر، لقد أفرزت تلك التحولات أفكارا استلهم منها المفكرون تصوراتهم ومناهجهم خاصة في مجال التفكير الاجتماعي للارتقاء به إلى الأسلوب العلمي، وتأسيس معرفة علمية اجتماعية ترقى إلى نفس مرتبة الفيزياءو البيولوجيا، ومن هنا كانت الفيزياء النموذج الأعلى للمعقولية والذي على المعرفة الاجتماعية الإقتداء به.

لقد بلغت العلوم الطبيعية إذن درجة من التقدم مما جعل منهجها يقدم مثالا جديرا بالاحتذاء والتطبيق في المجال الإنساني، فالمجتمع والإنسان هما جزء من الطبيعة فضلا على أن ظواهر المجتمع يمكن إدراكها بشكل مباشر أو غير مباشر وملاحظتها تماما كما هو الحال بالنسبة للظواهر الطبيعية، فالقوانين التي تتحكم في الطبيعة يمكنها أيضا أن تحدد تطور الجنس البشري، ويمكننا هنا دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة علمية من خلال التعامل معها كأشياءأو موضوعات لها وجودها الخارجي القابل للملاحظةو التجربة،

وتخضع بالتالي مثل ظواهر الطبيعة لقوانين ثابتة يمكن الكشف عنها ، وهذا ما يؤكده **لودفيج اندرياس فيورباخLudwig Andreas Feverbakh** (1804- 1872) : "تأملوا الطبيعة تأملوا الإنسان، أسرار الفلسفة أمامكم"(1)، أي أننا عندما نفهم الطبيعة كقانون أو عقل محسوس حينها يكون لدينا القانون الوحيد للإنسان، فاحتياجات الإنسان ورغباته عبارة عن ظواهر طبيعية تحدد طبيعته من خلال ظروفه الاجتماعية فليس هناك وعي بمنأى عن العالم التجريبي بما في ذلك الإنسان، وإذا أريد لمادة العلاقات الإنسانية أن تكون علما لا بد من السير في نفس الطريق المنطقي الذي تسير فيه العلوم الطبيعية، أي أن النظرية الجديدة أضفت على قوانين المجتمع طابع القوانين الطبيعية الموضوعية،" وهكذا وضع علم الإنسان وهو تعبير آخر عن النظرية الاجتماعية على نمط العلم الطبيعي، وكان لا بد من أن يطبع بطابع وضعي عن طريق بنائه على الملاحظة ومعالجته بالمنهج المستخدم في الفروع الأخرى للفيزياء، فالمطلوب إذن معاملة المجتمع كالطبيعة". (2)و هذا ما يؤكده **إميل دوركايمEmile Durkheim** (1858 – 1917) بقوله: "المثل الأعلى هو في الطبيعة ومن الطبيعة" (3)

إن وجود علوم طبيعية على أساس منطقي ومنهجي راسخ مثل بالنسبة لباحثي علم الاجتماع وفي **مقدمتهم أوغست كونت August Comte** (1798 – 1857) التحدي الذي ينبغي عليهم مواجهته للوصول بهذا العلم إلى مستوى يقارب مستوى العلوم الطبيعية، خاصة وأن أساس العلومو العنصر الأكثر فعالية فيها هو الإنسان الذي كان أساس هذه التحولات العلمية في مختلف ميادين المعرفة، وانطلاقا من هنا يمكننا أن نعالج الإشكالية التالية وهي: ما هي الفيزياء الاجتماعية عند كونت؟ ولماذا الارتقاء بدراسة المجتمع إلى مستوى العلم الطبيعي عنده؟

يمثل **أوغست كونت** إحدى المحطات الأساسية في تشكل الحداثة الغربية، فهو مؤسس الفلسفة الوضعية التي سيطرت على فرنسا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إن أهم ما يميز هذا المفكر الذي ولد خلال أحداث الثورة الفرنسية هو رؤيته المختلفة لكيفية معالجة الظروف الاجتماعية التي آل إليها المجتمع الفرنسي، فبعض الفلاسفة مالوا إلى الحلول السياسية الثورية إلا أن كونت أدرك المشاكل الاجتماعية جيدا ورأى أن الحلول تكمن في منظومة من الأفكار العلمية (أي العلم) والتي تستطيع من خلالها إحداث نوع من التآلف بين النظام والتقدم باعتبار أن القوى المتصارعة في المجتمع كانت تحمل إحدى هاتين الفكرتين بالصورة التي تكون بها معارضة للأخرى، فيرى كونت بأنه لا يمكن لأي نظام شرعي أن يقوم ولا أن يدوم إلا إذا كان متوافقا كليا مع التقدم، ولا يمكن لأي تقدم أن يحصل بفعالية إلا إذا أدى إلى ترسيخ النظام واستتباب الامن، فأساس المجتمع الصناعي هو العلم الذي يقدمه له مشروعيته ووحدته، وكان هذا العلم في نظر كونت هو علم الاجتماع بوصفه العلم الوحيد الكفيل بدراسة الظواهر الاجتماعية بطريقة وصفية، فهو المؤهل لخلق الانسجام بين النظام والتقدم، لهذا جاء حديثه عن علم الاجتماع مختلفا عن حديثه عن العلومالأخرى، فالعلوم التجريبية كالفيزياءو البيولوجياو الفلك وأيضا العلوم النظرية استكمل تطورها وبلغت المرحلة الوضعية موضوعا ومنهجا، أما بالنسبة لعلم الاجتماع فإن الأمر مختلف ذلك أن الظواهر الاجتماعية لم تتحصل على قدر كاف يجعلها قابلة لأن تكون موضوع ملاحظة علمية إلى جانب النقص الواضح في طريقة البحث، لذلك فإن الثورة الفرنسية كحدث تاريخي ساعدت على جعل الظاهرة الاجتماعية قابلة للدراسة العلمية، وقد أفصح كونت عن ذلك بقوله: "لولاها

لما أمكن أن توجد نظرية التقدمو لا أمكن تبعا لذلك أن يوجد العلم الاجتماعي ولا أمكن بالتالي أن توجد الفلسفةالوضعية". (4)

ولكن على الرغم من ذلك خلفت هذه الثورة وراءها أزمة حادة داخل المجتمع الفرنسي، بحيث لم تكن على مستوى الاستقرار السياسي والاجتماعي فحسب بل على مستوى التفكير، فانعدمت الوحدة في أسلوب معالجة القضايا العلمية والاجتماعية، وعبر كونت عن حالة الفوضى السائدة باسم "حالة الفوضى العقلية" (5)، ذلك أن سبب كل الاضطرابات الناجمة عن هذه الثورة هو الاضطراب العقلي أما الاضطرابات الأخرى فليست إلا أعراضا لأن العقول لم تعد تعترف بوجود نظام عام، فالناس لا يتبعون في التفكير منهجا واحدا يقودهم إلى حقائق يسلم بها الجميع، دون جدل، بل هم يتبعون مناهج ثلاثة، وقد يتبع الواحد منهم هذه المناهج جميعا في مسألة بعينها، دون أن يتفطن إلى ما بينها من تنافر وتضاد، وهذه المناهج هي منهج التفكير اللاهوتي الأسطوري، ومنهج التفكير الميتافيزيقي الخيالي، ومنهج التفكير الوضعي العلمي، لهذا أكد كونت على وجوب محاربة النظام اللاهوتي والميتافيزيقي من جهة، ووضع البديل الوضعي العلمي من جهة أخرى، فماذا نقصد بمصطلح الوضعي؟

إن كل مذهب فلسفي مهما بدا جديدا فإنه يتصل بالمذاهب التي سبقته، ويترتب عليها بطريقة مباشرة، هذا هو حال الفلسفة الوضعية عند كونت التي لم تنحدر من أصل واحد (6)، بل ترتبط بالتيار العام للفكر الحديث، ويمكننا هذا الرجوع إلى **فرنسيس بيكون Francis Bacon** (1561- 1626) الذي كان داعية للعلوم التي كانت في طريقها إلى الانفصال عن الفلسفة في القرنين 16 و17 الميلاديين، ويعتبر أيضا أول من وضع مصطلح الوضعية التي سميت به في القرن 19 م، بحيث أطلق صفة وضعي على الحقائق

الأولية التي يجب تقبلها إيمانا بصدق الخبرة، ثم أصبحت كلمة وضعي تطلق على منهج العلومالطبيعية نظرا لاعتمادها على الملاحظةو استخدامها للتجربة، ويقول بيكون في هذا الصدد : "الإنسان هو الموكل بالطبيعة والمفسر لها، وهو بهذه الصفة لا يملك أن يفعل أو يفهم إلا بالقدر الذي تتيحه له ملاحظته التي قام بها لنظام الطبيعة" (7).

كما أطلق الفيلسوف الفرنسي سان سيمون Saint Simon (1760-1825) كلمة وضعي على العلوم الخاضعة للملاحظة والتحليل والتجريب في كتابه: مقال في علوم الإنسان في عام 1813، وذلك تمييزا لها عن العلوم التي أطلق عليها اسم العلوم الظنية، وينبغي أن نشير هنا إلى علاقة كونت بأستاذة سان سيمون، بحيث يدين له فكريا إلى درجة أنه أصبح يشاطره جملة من الأفكار الأساسية التي طورها في عمله المرسوم بـــ "خطة الأعمال العلميةو الضرورية لإعادة تنظيم المجتمع" « Plan des travaux scientifiques et nécessaires pour réorganiser la société »

و التي يعتبرها أستاذه تعبيرا حقيقيا لأفكاره المتعلقة بإعادة بناء المجتمع، وهنا يقول كونت: "من المؤكد أنني أدين فكريا لسان سيمون بالفضل العظيم..... فقد أسهم إسهاما قويا في الأخذ بيدي إلى الاتجاه الفلسفي الذي بلورته اليوم بوضوح وسوف أنتهجه طيلة حياتي بلا تردد"(8).

أما بالنسبة للفلسفة الوضعية عند كونت فإنه لا بد أن تدرس في إطار جملة من الظروف الفكرية والعلمية والسياسية أي في إطار البيئة التي نشأ كونت في أحضانها، لأن فهمنا واستيعابنا لأي مفهوم من المفاهيم يتوقف على معرفتنا وفهمنا لأحداثه، وهذا ما يؤكدهليفي بريل **Lévy Bruhl** (1857-1939) بقوله : ".... يجب كذلك أن نقيم وزنا للظروف التاريخية التي ولد فيها والاتجاه العام للآراء المعاصرة، وتجميع جميع أنواع العوامل التي أثرت

في تفكير الفيلسوف" (9)، لقد كان من أهم الأحداث آنذاك الثورة الفرنسية – كما أشرنا سابقا – وكانت مختلفة تمام الاختلاف عن الثورات والانتفاضات التي شهدتها العصور السابقة، إنها الحدث المعنوي الذي تمخض عن فلسفة التنوير التي كانت تؤكد على مشروعيتها، هذه الفلسفة التي مهد لها فلاسفة لنشوء حركات التحرر الفكريو السياسي التي كانت تستهوي مثلا عليا خاصة هي الحرية والمساواة للجميع، لقد كان من أهم نتائج هذه الفلسفة في فكر كونت أنه استلهم منها روح الإصلاح الاجتماعي الذي لا يتحقق إلا بإصلاح الأخلاق، وتقوم الأخلاق على إيجاد الأسس الفكرية التي تبنى عليها قواعد المجتمع، وهذا ما يؤكده كونت بقوله: "إن الثورة الفرنسية لعبت دورا كبيرا وأكسبتني الخبرة التي بينت لي ضعف الثورة النقدية لإعادة بناء المجتمع". (10)

و نعني بذلك أن فلسفة كونت جاءت كثورة عارمة على الاتجاهات النقدية للمذهب العقلاني الألماني والفرنسي على حد سواء، فهي من جهة رد فعل عنيف على مذهب كانط Emmanuel Kant (1724–1804) ومذهب **هيجل Friedrich Hegel** (1770–1831) ومن جهة أخرى كرد فعل على الاتجاهات العقلية النقدية الفرنسية والممثلة في فلسفة **ديكارت René Descartes** (1596–1650).

إن المبادئ الأساسية التي أعلنها هيجل في فلسفته أدت إلى نقد لكل شيء كان يعد حتى الآن حقيقة موضوعية، فالبناء التصوري لفلسفة هيجل تنفي (أي تنكر) الأشياء على ما هي عليه، وحينما ينظر إليها في ضوء العقل تصبح محدودة ويمكن بالتالي تجاوزها، فكل شكل معطى ينتقل فيه مباشرة إلى ضده، فوجود عنصر النفي داخل الفكر في فلسفة هيجل هو الضمان على تطور الفكر نفسه، فالسلب عنده ليس مجرد عملية ذهنية بل هو كذلك عملية

في الواقع، بحيث يتجلى كلاهما في الآخر، أي أن العقل حامل للتفكير السلبي وهو يحرك المجتمع عبر مراحل، أي ينفي الكيان الموجود ليعود وينفي النفي نفسه، فالسلب عند هيجل هو قانون الفكر والوجود في آن واحد، إن فلسفة هيجل السلبية رغم أنها تبحث في إمكانات الأشياء إلا أنها عاجزة عن معرفة واقعها الفعلي وهي بالتالي لا يمكنها تفسير الأشياء على ما هي عليه أو تبريرها، هذا النوع من الفلسفة على حد قول النقاد ينكر على المعطى شرف الواقعية.(11)

ومن هنا يرى كونت أن هيجل جعل من النقد مكونا أساسيا للتأمل الفلسفي، وهذا ما ترفضه فلسفته الوضعية التي تهدف إلى دراسة ظواهر العالم كموضوعات محايدة تحكمها قوانين لا أسباب وغايات وهنا يقول كونت: " إن روح المذهب الوضعي تنحصر في الابتعاد عن المعرفة التجريدية ....." (12)

أما بالنسبة لكانط فإن فلسفته تميزت بالنقد نظرا لمواقفه من ذلك الصراع الذي كان قائما بين الاتجاهين العقلاني والتجريبي، فعلى الرغم من أن فلسفته كانت تحمل صفة القبلية أي أن العقل بالنسبة إليه هو منظومة من المبادئ القبلية إلا أنه يحمل كل المقولات الضرورية لمعرفة الواقع خاصة أن كانط كان متأثرا ببعض المفاهيم العلمية المجسدة في فيزياء نيوتن والتي أثرت على المسار الفكري للفلاسفة في تلك المرحلة، لقد حاول كانط دمج عناصر العقل بعناصر التجربة، فالعقل مزود بالمبادئ القبلية ويقوم بتنظيم معطيات التجربة وتحليلها إلى معرفة يقينية، فأصل المعرفة عنده قسمان: الحساسية والفهم، فالحساسية تمثل الانطباعات الحسية وتقدمها التجربة كموضوعات ويقوم الفهم بتعقل هذه الموضوعات، فالزمان والمكان صورتان خالصتان للحساسية وهما شرطان أساسيان في تمكين العقل البشري من

تحقيق نوع من التآزر بين جميع الموضوعات الحسية وفقا لقانون محدد، لكن على الرغم من أن وظيفة العقل عند كانط قد توسعت بحيث لم تعد مجرد قواعد منطقية مجردة بل أصبحت أداة منظمة تضفي صفة الوحدة التركيبية على المعرفة، إلا أن كونت يصفها بالفلسفة السلبية لأنها تعطي السلطة للذات على الواقع وهذا ما يرفضه، لأن السلطة المطلقة في فلسفته هي للواقع القائم على ملاحظة المعطيات المباشرة، ويؤكد كونت هنا أنه ينبغي تجاوز هذه الفلسفة السلبية ولا نقبل إلا بالتفكير الوضعي كمنهج كليو عام، فيرى أن هذه المرحلة الوضعية تحاول أن تكشتف عن طريق المحاجة العقلانية والملاحظة العيانية والتجريب القوانين الفعلية التي تتحكم في الظواهر .(13)

أما بالنسبة لموقف كونت من ديكارت فإن قراءتنا لأحد دروسه والموسوم بـــ : "مقالة المنهج" تشير إلى ذلك التقارب الموجود بين الفيلسوفين في اعتمادهما معا على المنهج الرياضي، خاصة أن كونت يقول: "إن الروح العامة للفلسفة الوضعية نشأت في أول الأمر بناءا على الثقافة الرياضية" (14)، لكن كونت يرى أن سلطة هذا المنهج على جميع العلوم تاريخيا وكما فعل ديكارت لا يعني تعميمه أي تحويله إلى منهج عام، فالرياضيات ما هي إلا مقدمة ضرورية لنمو العقل والوقوف على المنهج الوضعي لا يتم بفحص الرياضيات وحدها بل مجموعة العلوم الأساسية، خاصة أن لكل علم منهجه في البحث تفرضه طبيعة موضوعه، فالعلوم النظرية كالرياضيات تعتمد على الاستنتاج، والعلوم التجريبية كالفيزياء والبيولوجيا تقوم على التجربة، وعلم الاجتماع على التاريخ، وهذا ما نستنتجه من قول كونت: "...الدروس في الفلسفة الوضعية ليست دروسا في العلوم الوضعية.... بل دروس في الفلسفة الوضعية" (15).

إلى جانب ما لاحظناه عن المنهج الديكارتي نضيف إلى ما تقدم أن النسق الديكارتي في مجموعه يستند إلى الميتافيزيقا بوجه عام، فهو يطرح فكرة التمييز بين العلوم والفلسفة من خلال رد المعرفة إلى الفلسفة، ومن هنا يبني العلم على أسس ميتافيزيقية، لقد نظر ديكارت إلى الفلسفة نظرة كلية شاملة وذلك إذ جعلها لكل العلوم أشمل، وليس أدل على ذلك من أنه عرف الفلسفة بأنها دراسة الحكمة، والحكمة هي المعرفة الكاملة بكل ما في وسع الإنسان معرفته، ولكي تكون هذه المعرفة لا بد من أن تكون مستنبطة من العلل الأولى، ومثل الفلسفة كالشجرة جذورها الميتافيزيقا وجذعها العلم الطبيعيو أغصانها بقية العلوم، لقد جعل من الفلسفة أما للعلوم جميعا أو أصلا لهذه العلوم التي هي منها بمثابة الفروع لها. أما كونت فإنه يطرح الفكرة بشكل مغاير وهو أنه يـــــرد المعرفة إلى العلم ويخلصه بالتالي من الميتافيزيقا أما الفلسفة فهي عبارة عن اختصاص جديد ذلك أنها لم تعد تهتم بالبحث في المبادئ المعرفية الأولى (الأنطولوجيا)، وإنما هي قول موضوعه العلم، فالفلسفة بالمفهوم الوضعي هي نظرية العلم، ومن هنا فإن التمييز بين الفلسفة والعلم يتقلص لفائدة الوحدة التي لا تتحقق إلا بوحدة المنهج (16)، وهذا المنهج من شأنه أن يحول مختلف المعارف الوضعية إلى فروع من جذع واحد، هذا الجذع هو الفلسفة الوضعية.

لقد قامت الوضعية في أساسها على تأكيدها وحدة المنهج في التفكير بغض النظر عن الموضوع المدروس، وهي حينما تفعل ذلك تسد الطريق أمام ذلك الانفصام الذي كان يعاني منه جيل ما قبل الوضعية الذي كان يستخدم المنهج الوضعي في معالجة العلوم الطبيعية فقط، إنه كلما تقدم الإنسان في الدراسة الوضعية للظواهر ترك بالتدريج التفسيرات اللاهوتية والميتافيزيقية، كما يقلع عن البحث في الأسباب التي لم نعد في حاجة إلى

افتراضها لأن فكرتنا عن الظواهر الاجتماعية أصبحت وضعية تماما إذ يكفي أن نتصور أن هذه الظواهر خاضعة لبعض القوانين وستختفي طريقة التفكير الميتافيزيقي عندما نعتاد تصور جميع أنواع الظواهر على غرار الظواهر السابقة، إن من أهداف الوضعية إذن هي جعل منهجها منهجا كليا شاملا لكل ظواهر الكون أي وحدة المعرفة الوضعية، " لأننا ما دمنا نفكر بمنطق وضعي في مادة علم الفلك أو الفيزياء، لم يعد بإمكاننا أن نفكر بطريقة مغايرة في مادة السياسة أو الدين، فالمنهج الوضعي الذي نجح في العلوم الطبيعية غير العضوية، يجب أن يمتد إلى كل أبعاد التفكير"(17)، ومن هنا نتساءل ما معنى الوضعية عند كونت؟

تقوم الوضعية عند كونت على عدة معاني أهمها:

1- تدل على الحقيقي في مقابل الوهمي، فالحقيقي هو كل ما يستطيع عقل الإنسان أن يبلغه.

2- يترتب على المعنى الأول معنى آخر، فالوضعي بمعنى النافع في مقابل غير النافع، فالنافع هو الذي يبرز في مدى اكتسابنا لليقين الذي يتناسب مع طبيعة الظواهر ومتطابق مع حاجاتنا الحقيقية.

3- تستعمل كلمة وضعي لإبراز التقابل بين اليقين وعدم اليقين، وهنا تكمن قدرة الفلسفة الوضعية على تكوين الثقة الروحية للفرد لكي تبعده عن شكوكه ونقاشاته اللامتناهية.

4- إن المعنى الرابع مألوف ويتعلق بمقابلة الدقيق مع الغامض (18)، فالفلسفة الوضعية تعلمنا الدقة أما الفلسفات القديمة كاللاهوتيةو الميتافيزيقية فإنها تؤدي إلى الآراء الغامضة، وهنا يقول كونت: "مادام الذهن الإنساني خاضع لنضج قانون طبيعي فليس هناك من

سبيل لإرجاعه إلى الأعمال القديمة المضطربة وهي التي أصبحت اليوم ولحسن الخط مستحيلة". (19)

5- إن كلمة وضعي في معناها الخامس تقابل السلبي، وبهذه الصفة الإيجابية فهي تعني أهم خصائص الفلسفة المعاصرة الحقيقية.(20)

على الرغم من هذه المعاني المختلفة للوضعية إلا أننا لا نجد تعريفا موحد المعنى في مؤلفات كونت، لهذا نقول أنها تطلق على مجمل مذهب أوغست كونت، لكن ما يعترف به هو نفسه أن المعاني المتنوعة التي تتناسب مع الفلسفة الجديدة لا تشكل عائقا فعليا بل على العكس، فهي أحد الأمثلة الأساسية للصفات المتميزة المعبر عنها في تعبير واحد متداول، وذلك عندما توصل العقل العام إلى الاعتراف بترابطها الدائم.

إن كل ما كتبه كونت إذن يعده فلسفة وضعية، تقوم على وقائع، وهي مفيدة تهدف إلى تحسين الحياة، فهي تتضمن تعليم الناس أن يتخذوا موقفا إيجابيا من الوضع السائد ضد أولئك الذين أكدوا الحاجة إلى نفيه، وهذا ما يؤكده وليام كليرايت بقوله : "تتكون فلسفته الوضعية الخاصة من تفسير نسقيو تضيف للعلوم، وتطور مضامينها من أجل إصلاح اجتماعي" (21)

أما عن تبني كونت لحدي "الفلسفة" و"الوضعية" فهو ينطلق بتحذير Avertissement في كتابه "Cours de Philosophie Positive "، يوضح من خلاله اضطراره لذلك فيقول: "سأقتصر إذن في هذا التحذير لأعلن بأنني أستعمل كلمة "فلسفة" بالمعنى الذي أعطي لها عند القدامى وخاصة عند أرسطو لتدل على المنظومة العامة للمفاهيم الإنسانية، وبإضافة كلمة "وضعية" فأنا أعلن عن طريقي الخاصة للتفلسف وتتعلق بتناول النظريات في أي نظام للأفكار كان ....." (22)

نستنتج من هنا أن كونت انطلق من مرجعين مستعارين، الأول من الفلسفة القديمة والآخر من العلم الحديث، لقد استعار من أرسطو الحد "فلسفة" وهي بالمعنى الأرسطي المنظومة العامة للمفاهيم الإنسانية، واستعار من **نيوتن Isaac Newton** (1642 – 1727) فكرة الوضعية التي هي طريقة للتفلسف، وبتقريب هذين الحدين من بعضهما تتشكل "الفلسفة الوضعية" التي تقوم بوظيفة التنظيم في النظام المعرفي، ويتحدد أساس انطلاق هذا المسار بمراعاة العلاقات الواقعية بين الظواهر، "فهي إذن لا تدخل أي افتراضات في أي وقت كان على الواقع أو على الذهن ذاته، لكنها تحاول دراسة كيف يدخل الواحد والآخر في علاقة ما، وكيف يوضع النظام في علاقتهما، أي كيفيتم تنظيمها" (23)، وهنا يؤكد **هربرتماكيوز Herbert Marcuse** (1898–1979) في كتابه العقل والثورة: "إن فلسفة كونت بحكم طبيعتها ذاتها لا تهدف إلى التدمير بل إلى التنظيم، وأنها لن تعلن أبدا أي نفي أو سلب مطلق" (24)

كما يشير أيضا كونت في تحذيره إلى التداخل بين صيغته الجديدة والمتمثلة في "الفلسفة الوضعية" وبعض الصيغ الأخرى وهي "الفلسفة الطبيعية"و "الفلسفة العلمية"، لقد اختار كونت الصيغة "الفلسفة الوضعية" لأنها تدل على الطريقة المنسجمة والموحدة للتفكير والتي يمكن تطبيقها على كل المواضيع التي يتعامل معها الذهن الإنساني (25)، ويحاول في خاتمة قوله تقريب الصيغ من بعضها البعض ليبين في أي نقاط تبتعد الفلسفة الوضعية عن الفلسفة الطبيعية والفلسفة العلمية، فيبين أن الصيغة "فلسفة وضعية" تحيل إلى معنى أوسع من "فلسفة طبيعية" بالمعنى الصارم، وذلك في نطاق ما يطبق ليس فقط على الظواهر الطبيعية لكن كذلك على الظواهر الاجتماعية، أما الصيغة "فلسفة وضعية" لها معنى أضيق من الصيغة "فلسفة علمية" لأنها

لا تأخذ على عاتقها المعارف المتعددة الخالصة والخاصة بحقل البحث في كل علم لكنها تهتم فقط بالدراسة المتعلقة بتوحيد المنهج في كل العلوم(26)، لأنه بذلك سيتحقق الانسجام العقلي بعد أن يصبح التفكير الإنساني موحدا، لا يقتصر على جانب دون آخر، ويتم في النهاية القضاء على الفوضى العقلية الناتجة عن تعايش أنماط التفكير المتعارضة، يعترف إذن أوغست كونت بأنه أسس علم الاجتماع نتيجة لتمزق المجتمع الفرنسي ليغدو هذا العلم ليس فقط ضرورة معرفية بل وأيضا مطلبا إيديولوجيا يتمثل في إرادة كونت رفع حالة الاضطراب التي كانت تسود المجتمع آنذاك نتيجة لعدم القدرة على التوفيق بين فكرتي التقدم والنظام، فقوانين المجتمع هي الوسيلة الوحيدة لخلق التوافق والإنسجام بين كل قوى المجتمع، وكلما استطعنا اكتشاف القوانين التي تحكم حركة المجتمع الإنساني فسوف يجعلنا ذلك قادرين على تشكيل مستقبلنا ومصيرنا بنفس الشكل الذي تتيحه العلوم الطبيعية للتحكم في أحداث العالم الطبيعي، وتعبر عن ذلك الرأي عبارته الشهيرة "التنبؤ من أجل التحكم". (27)

« **Prévoir Pour Pouvoir** »

انطلاقا من هنا أصبح علم الاجتماع الذي هو ميدان للظواهر الاجتماعية علما نتيجة لتخليه عن وجهة النظر المتعالية التي يتخذها النقد الفلسفي، وأصبح ينظر إليه الآن كمجموع مركب من الوقائع وتحكمه قوانين عامة بدرجات متفاوتة. لهذا يحدده كونت بقوله: "....علم الاجتماع يدرس قوانين الظواهر الاجتماعية، كما تبحث الرياضيات عن قوانين الظواهر الهندسية". (28)

بعد أن يحدد كونت مبدأ الفلسفة الوضعية ومبدأ الفيزياء الاجتماعية يؤكد على ترابطهما لأنه من المستحيل أن نقبل درسا في الفلسفة الوضعية دون إنشاء لعلم الاجتماع، ولتنظيم المبدأين السابقين يأتي بمبدأ ثالث وهو

المشهور بالحالات الثلاث التي تمثل مراحل تقدم العقل البشري وهي: اللاهوتية والميتافيزيقية والوضعية.و يعبر كونت عن هذا القانون بقوله: "بناءا على طبيعة العقل البشري نفسها لا بد لكل فرع من فروع معلوماتنا من المرور في تطوره بثلاث حالات نظرية متباينة ومتضادة: الحالة اللاهوتيةأو الخرافية، والحالة الميتافيزيقية أو المجردة والحالة العلمية أو الوضعية" (29)، كما توسع تصوره لهذه المراحل ليشمل مسارات الذات الإنسانية، في منظور تاريخي كأنه يستنبط قانون الحالات الثلاث من طبيعة الإنسان فالذات الإنسانية في طبيعتها تستعمل بالتعاقب ثلاثة طرق للتفلسف، حيث صيغتها مختلفة جذريا، فكل واحد منا يتذكر أنه كان لاهوتيا في طفولته ميتافيزيقيا في شبابه وعالم طبيعة فينضجه (30).

يحرص أوغست كونت في تقسيمه للمراحل الثلاث التي هي تعبير عن لحظات الصيرورة التاريخية على تحديد طرائق التفكيرو أساليب فهم الوجود في كل مرحلة، ولهذا يستعمل كونت لفظ المرحلة حينا وحينا آخر لفظ الحالة، فاللفظ الأول دال على اللحظة التاريخية أما لفظ "**حالة**" فإشارة إلى نمطأو أسلوب في التفكير.

المرحلة اللاهوتية: **L'étatThéologique**

ارتبط مصطلح اللاهوت عند كونت بالخرافة والأسطورة، فهو يعبر عن طريقة عامة في فهم الظواهر المختلفة بردها إلى الإرادة الإلاهية، وتتميز الذات الإنسانية في هذه الحالة بالتلقائية في أبحاثها، بحيث تبحث عن الأسباب الأولى باتجاهها نحو المعارف المطلقة،و تعتبر هذه المرحلة نقطة انطلاق للوعي البشري، ويشبهها بمرحلة الطفولة، فالوعي في هذه المرحلة ضعيف نتيجة لنقص تراكم المعرفة والخبرة وإن كان لا بد أن تكون على هذا النحو، فالذات الإنسانية هنا تعتقد أن الظواهر الطبيعية تنتج عن القوى

الخارقة للطبيعة وتأثيرها المباشر، كما أن الكون كله خاضع للنزوات الإعتباطية لهذه القوى(31)، ويعلل كونت ضرورة هذه المرحلة كبداية في التفكير الإنساني بقوله أن تاريخ الإنسانية قد بدأ حتما بأوهام فوق طبيعته ولا بد لهذه الأوهام أن تزول وتضيع قبل ظهور المعارف المتماسكة، وبمعنى آخر أن يكون محكوما بالضياع لأن يدخل إلى الحقيقة، بحيث أن هذا الضياع لا يسبق فقط بل يكون شرطا للحظة التي يدخل بها إلى المعارف المتماسكة.

يرى كونت للمرحلة اللاهوتية أقسامها الهامة، يبدأ القم الأول بما يسميه بالفيتيشية أو الوثنية Fétichismeو خلالها يتم التعامل مع الأشياء المادية وكأنها حية لها مشاعرها، كما أن لها قوى تؤثر بها على حياة الإنسان، ومن هنا يعبد الإنسان في هذه المرحلة هذه الأشياء والظواهر ويتقدم إليها بأنواع من الطقوس طلبا لنفعها أو دفعا لضرها، والقسم الثاني هو مرحلة تعدد الآلهة Polythéisme وخلالها يتم تصور الآلهة وكأنها قوى خفية أو شبه خفية تتحكم في جميع أصناف الظواهر وهي متعددة بتعدد شؤون الحياة، فإله للمطر وآخر للزرع وثالث للجسد (32)، أما القسم الأخير فسماه بطور التوحيد Monothéisme، ويزعم كونت أن الإنسان في هذه المرحلة قد جمع جميع الآلهة التي كان يعبدها ووحدها في إله مفارق غير منظور ويعطي كونت مثالا لذلك وهو ظهور المسيحية في هذه المرحلة.

المرحلة الميتافيزيقية: L'état Métaphysique

ما معنى كلمة ميتافيزيقا عند كونت؟ وهل تعني المعنى المألوف عند الفلاسفة؟ إن كلمة ميتافيزيقا في فلسفته لا تعني علم الوجود من حيث هو وجود أو علم المبادئ الأولى، بل تعني نوعا خاصا من تفسير الظواهر التي توقفنا عليها التجارب، مثال ذلك فرض الأثير الذي يستخدمه الطبيعيون

الأوائل لتفسير الظواهر الضوئية والكهربائية فهو فرض ميتافيزيقي ويقول عنه كونت بأنه تفسير ميتافيزيقي مجرد.(33)

إن ظهور هذه المرحلة في نظر كونت أمر ضروري تتطلبه طبيعة الإنسان، فظهورها التلقائي جعلها وسيلة للانتقال من المرحلة اللاهوتية إلى المرحلة الوضعية، فهي تمثل شباب الذات الإنسانية بعدما خرجت من طفولتها ووصلت إلى رجولتها وهذا ما يؤكده كونت بقوله: " .....إن فاهمتنا المضطرة إلى أن تسير ببطء درجة فدرجة لا تستطيع أن تنمو بطريقة فجائية ودون وساطة من الفلسفة اللاهوتية إلى الفلسفة الوضعية"(34)، في هذه المرحلة يبدأ العقل الإنساني في البحث عن علل الأشياء والظواهر في الأشياء و الظواهر نفسها، أي أنها كامنة فيها، وجعل منها المحرك الأول للظواهر المختلفة، وكانت الطبيعة هي هذا المبدأ الأول الذي من الضروري افتراضه من أجل تعليل نظام الكون، إنه الانتقال من نمط المعرفة المطلقة إلى نمط المعرفة النسبية لهذا يعتبرها كونت آخر صورة تمهيدية تشكلت بها الفلسفة اللاهوتية.

المرحلة الوضعية: L'état Positif

وهكذا ينفتح الذهن على الوضعية ويتأكد من استحالة الحصول على مفاهيم مطلقة من خلال تخليه عن تفسير الظواهر بواسطة علل وماهيات ليست في المتناول، ويعتمد في البحث على مجموعة من القوانين الناتجة عن الممارسة التجريبية القائمة على العلاقات الثابتة للتعاقب والتشابه بين الظواهر، إن العقل الوضعي في هذه المرحلة يستعيض بطريقة الملاحظة عن طريقة التخيل، وبالمعاني النسبيةعن المعاني المطلقة، ويكون بذلك قد هدم الكثير من الأوهام اللاهوتية والميتافيزيقية حتى تلك المتعلقة بالمجتمع من خلال تجاهله للمطلب اللاهوتي وهو مطلب الحد الماورائي والطلب

الميتافيزيقي وهو مطلب الحد الماهوي والإقتصار على ملاحظة الظواهر وتفسيرها من خلال رد بعضها إلى بعض، وهنا يقول كونت : " إن الميزة الأساسية للفلسفة الوضعية هي ملاحظة كل الظاهرات الخاضعة لقوانين ثابتة حيث الاكتشاف الدقيق والاختزال إلى عدد ممكن هو الهدف لكل جهودنا وذلك باعتبار البحث عن الأسباب الأولى والنائية من أي معنى ولا يمكن الوصول إليها على الإطلاق". (35)

إن تعاقب المراحل الثلاث في نظام لا يتغير هو السبيل المحتوم لترقي الذهن الإنساني في معرفة كل الظواهر، لا منظور إليه في شخص فرد معين بل في الشخص العام الذي هو الإنسانية، كما يعتبر اكتشاف هذا القانون حدثا مهما جاء مبشرا بالعلم الوضعي.

تأسيسا على ما سبق نستطيع أن نقول ما يلي:

يؤكد كونت أنه إذا كانت الفلسفة اللاهوتية والميتافيزيقية ليست لها في هذه الأيام سيطرة إلا في ميدان الدراسة الاجتماعية فلا بد من طردها من هذا الملجأ الأخير، والوسيلة الوحيدة لتحقيق ذلك هي التفسير القائل أن حركة المجتمع تخضع بالضرورة لقوانين فيزيائية لا تتغير أي مبدأ القوانين الثابتة في المجتمع بحيث ينبغي استسلام الناس لها لأن الاستسلام الحقيقي لا يمكن أن ينتج إلا عن شعور عميق بالقوانين الثابتة التي تحكم الظواهر الطبيعية المتنوعة.

لقد ظهرت النظرية الاجتماعية الحديثة نتيجة التبني الوضعي لها، فمن هذه الوضعية ظهر علم الاجتماع وبتأثيرها تحول إلى علم تجريبي مستقل مبني على الوقائع الملاحظة.

الهوامش:

1- حنا (ديب)، هيجل وفيورباخ، دار أمواج للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1994، ص 182.

2- هربرت (ماركيوز)، العقل والثورة، تر : فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970، ص 318.

3- زكريا (إبراهيم)، مشكلة الإنسان، مكتبة مصر، القاهرة، ط1، 1959، ص 161.

4- ليفي (بريل)، فلسفة أوغست كونت، تر : محمود قاسم والسيد محمد بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة، ط2، 1952، ص2 .

5- ليفي (بريل)، المرجع السابق ، ص12.

6- Cantecor (Georges), le positivisme, librairie Paul Delaplane, Paris, P127.

7- فرنسيس (بيكون)، الأرجانون الجديد، إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة، تر : عادل مصطفى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2013، ص 16.

8- Comte (Auguste), Cours de philosophie positive, collection des classiques, Garnier, TomeI, Paris, Introduction.

9- ليفي بريل، المرجع السابق، ص 17.

10- Comte (Auguste), Cours de philosophie positive, Opcit, P114.

11- هربرت (ماكيوز)، المرجع السابق، ص 313.

12- Comte (Auguste), Discours sur l'esprit positif, Librairie Schleicher Frères, Paris, 1909, P 21.

13- Comte (Auguste), Cours de philosophie positive, Opcit, P 27.

14- Comte (Auguste), Cours de philosophie positive, Opcit, P704.

15- Comte (Auguste), Cours de philosophie positive, Opcit, P29.

16- Ibid, P41

17- Raymond (Aron), les étapes de la pensée sociologique, édition Gallimard, 1976, P 87- 88.

18- Comte (Auguste), Discourt sur l'esprit positif, Opcit, P 50.

19- Comte (Auguste), Cours de philosophie positive, Opcit, P 38- 39.

20- Comte (Auguste), Discours sur l'esprit positif, Opcit, P 51.

21- وليام كلي (رايت)، تاريخ الفلسفة الحديثة، تر : محمود سيد أحمد، التنوير للطبعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 2010، ص 400.

22-Comte (Auguste), Cours de philosophie positive, Opcit, voir l'avertissement de l'auteur.

23- بيار (ماشيري)، كونت الفلسفة والعلم، تر : سامي إبراهيم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1994، ص 13.

24- هربرت (ماكيورز)، المرجع السابق، ص 333.

25-Comte (Auguste), Cours de philosophie positive, Opcit, voir l'avertissement de l'auteur.

26- بيار (ماشيري)، المرجع السابق، ص 13-14.

27- نقلا عن أنتوني (جيدنز)، مقدمة نقدية في علم الإجتماع، تر : أحمد زايد عدلي السمري، محمد محي الدين، محمد الجوهري، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الإجتماعية، جامعة القاهرة، الطبعة الثانية، 2006، ص 30.

28- نقلا عن ليفي بريل، المرجع السابق، ص 241.

29-Comte (Auguste), Cours de philosophie positive, Opcit, P05.

30-Ibid , P 12.

31-Ibid, P24.

32- وليام كلي (رايت)، hglvûhgshfrK z 396 -397.

33- ليفي بريل، المرجع السابق، ص 53.

34- بيار (ماشيري)، المرجع السابق، ص 33.

35- بيار (ماشيري)، المرجع السابق، ص 36- 37.

قائمة المصادر والمراجع:

I- المصادر باللغة الفرنسية:

1- Comte (Auguste), Cours de philosophie positive, collection des classiques, Garnier, Tome I, Paris, Introduction.
2- Comte (Auguste), Discours sur l'esprit positif, Librairie Schleicher Frères, Paris, 1909.

II- المصادر باللغة الفرنسية :

1- Cantecor (Georges), le positivisme, librairie Paul Delaplane, Paris, sans date.
2- Raymond (Aron), les étapes de la pensée sociologique, édition Gallimard, 1976.

III- المصادر باللغة العربية :

1- أنتوني (جيدنز)، مقدمة نقدية في علم الإجتماع، تر : أحمد زايد عدلي السمري، محمد محي الدين، محمد الجوهري، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الإجتماعية، جامعة القاهرة، الطبعة الثانية، 2006.

2- بيار (ماشيري)، كونت الفلسفة والعلم، تر : سامي إبراهيم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1994.

3- حنا (ديب)، هيجل وفيورباخ، دار أمواج للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1994

4- زكريا (إبراهيم)، مشكلة الإنسان، مكتبة مصر، القاهرة، ط1، 1959.

5- فرنسيس (بيكون)، الأرجانون الجديد، إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة، تر : عادل مصطفى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2013.

6- ليفي (بريل)، فلسفة أوغست كونت، تر : محمود قاسم والسيد محمد بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة، ط2، 1952.

7- هربرت (ماركيوز)، العقل والثورة، تر : فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970.

8- وليام كلي (رايت)، تاريخ الفلسفة الحديثة، تر : محمود سيد أحمد، التنوير للطبعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 2010.